

الفصل التاسع غَزْوَةُ خَيْبَرَ

المحرم ٧ هـ - مايو / يونيو ٦٢٨ م

المبحث الأول ملخص الغزو

(خيبر) ١ واحة كبيرة يسكنها اليهود على مسافة مائة ميل من شمال المدينة جهة

١ تقع مدينة خيبر على بعد ١٧٠ كم شمال المدينة المنورة على منطقة جليها عبارة عن حرة عظيمة الاتساع متوسط ارتفاعها ٨٥٠ مترا عن سطح البحر، وتعتبر خيبر منذ اقدم العصور ولا تزال واحة واسعة خصبة معطاء وذات عيون ومياه غزيرة تصلح تربتها لزراعة الحبوب والفواكه بانواعها وهي من أكبر واحات النخيل في جزيرة العرب وكانت خيبر من أسواق العرب المعروفة في الجاهلية ويعرف باسم " سوق نطاة خيبر " (انظر : موقع وزارة الشؤون البلدية والقروية على الإنترنت : بلدية محافظة خيبر)

الشام.. وسبب هذه الغزوة أن النبي ﷺ بعد أن أمن جانب قريش بالصلح الذي تم في الحديبية، قرر تأديب يهود خيبر الذي حزبوا الأحزاب والقبائل على الدولة الإسلامية الناشئة، وجعلوا من واحة خيبر مقرًا لدس الفتن وإيقاع الأذى بالأمة الإسلامية، وأجمع الرسول ﷺ على الخروج إليهم في أواخر المحرم، فخرج إليهم في ألف وستمائة مقاتل، منهم مائتا فارس، واستنفر من حوله ممن شهد الحديبية، وابتدأت المعارك، يفتح المسلمون منها حصنًا بعد حصن، إلا الحصنين الأخيرين، فقد رغب أهلها في الصلح.. وقد بلغ عدد قتلى اليهود في هذه المعركة، ثلاثة وتسعين، واستشهد من المسلمين خمسة عشر ١ .

المبحث الثاني

آداب الحروب

المطلب الأول : تكريم أصحاب المواهب من الجنود :

قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه :

خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ فَمَرَرْنَا لَيْلًا فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ لِعَامِرٍ : يَا عَامِرُ أَلَا تَسْمِعُنَا مِنْ هُنَيْهَاتِكَ ؟

وَكَانَ عَامِرٌ رَجُلًا شَاعِرًا فَتَزَلَّ يَخْذُو بِالْقَوْمِ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا

وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَاغْفِرْ فِدَاءَ لَكَ مَا أَبْقَيْنَا

وَبَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَا قَيْنَا

وَالْقَيْنُ سَكِينَةٌ عَلَيْنَا

إِنَّا إِذَا صَبَحَ بَنَّا أَبِينَا

وَبِالصَّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - "مَنْ هَذَا السَّائِقُ ؟ " .

١ انظر تفاصيل هذه الغزوة في : الواقدي: ٣٨٩، وابن هشام ٣/ ٣٤٢، والطبري ٣/ ٩١، والبلاذري: أنساب الأشراف ١/ ١٦٩، وابن سيد الناس ٢/ ١٣٠، وابن القيم: زاد المعاد ٢/ ٣٢٤، والمقرئزي ٣٠٩، ومصطفى السباعي ٧٠

قَالُوا: عَامِرُ بْنُ الْأَكْوَعِ.

قَالَ: "يَرْحَمُهُ اللَّهُ" ..

قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: وَجَبَتْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ! لَوْلَا أَمْتَعْتَنَا بِهِ!

إن الملح الذي نذكره هنا هو مدى تقدير الجيش الإسلامي لأصحاب المواهب من الجنود، فالقائد والجنود على حد سواء في بحث دائم عن أصحاب الفنون بين الصفوف، كالشعراء والمنشدين .. إن تكريم هذا الصنف من الجنود يعود دومًا بالإيجاب على الحالة النفسية والمعنوية لجند الله .. إن هؤلاء الموهوبين يلهبون مشاعر الحماسة في نفوس الجنود، ويدفعون - بفنونهم - الرجال إلى الصمود والثبات أمام جحافل الباطل ..

المطلب الثاني: الدعاء قبل الإغارة!

لَمَّا دَنَا النَّبِيُّ ﷺ مِنْ خَيْرٍ وَأَشْرَفَ عَلَيْهَا قَالَ:

"قِفُوا!! فَوَقَفَ الْجَيْشُ.

ثم توجه القائد العام والرحمة المهداة إلى ربه بهذا الدعاء الكريم قائلاً ومعلماً:

"اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ .. وَرَبَّ الْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ .. وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضَلَلْنَ .. فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، وَخَيْرَ أَهْلِهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا .. أَقْدِمُوا بِسْمِ اللَّهِ" ٢.

إنها القيادة الخليفة بالنصر، تلك القيادة القريبة من ربها المتذلة إليه .. إن رسول الله ﷺ بهذا الدعاء يرسل إلى قلوب ووجدان جنوده رسالة مفادها: أنهم مهما امتلكوا من قوة وبلغوا من سطوة فهم في حقيقة الأمر أذلاء إلا الله فلا يعترفون ولا يعلوهم الكبر ..

وكيف يعترهم الكبر أو يقتحم قلوبهم الغرور وهم يدعون "رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ .. وَرَبَّ الْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ .. وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضَلَلْنَ .." .. إن مثل هذا الدعاء من شأنه أن ييث قيم الرحمة والأخلاق والتواضع في نفوس جند الله .. وأمثال هؤلاء الذين نصرروا الله في نفوسهم وفي قلوبهم لهم أجدر الناس بنصر الله، الذي قال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" [محمد: ٧].

١ صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٥)

٢ ابن القيم: زاد المعاد ٣ / ٢٨٣ .

وهم - مع ما آتاهم الله من قوة - يتنزلون المدد من الله وحده، فيسألونه "خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، وَخَيْرَ أَهْلِهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا"، ويلوذون بجنابه ويستعيذون بكنفه "مِنْ شَرِّ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا" ..

كما لا يستفتحون القتال باسم أحد من المخاليق أو باسم شعارات إلحادية أو علمانية أو شركية فهم لا يقاتلون من أجل رأس مالية ولا في سبيل اشتراكية .. إنما يقاتلون في سبيل الله، وعلى منهج الله .. لذلك كانت إشارة البداية من القائد العام :

" .. أَقْدِمُوا بِسْمِ اللَّهِ "

المطلب الثالث : أخلاقيات الإغارة على العدو :

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى خَيْبَرَ لَيْلاً وَكَانَ إِذَا أَتَى قَوْمًا بَلِيلٌ لَمْ يُغْرِ بِهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ خَرَجَتْ إِلَيْهِ يَهُودُ بِمَسَاحِيهِمْ وَمَكَاتِلِهِمْ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: مُحَمَّدٌ وَاللَّهِ! مُحَمَّدٌ وَالْحَمِيسُ!

ثُمَّ رَجَعُوا هَارِبِينَ إِلَى حُصُونِهِمْ ٢

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "[اللَّهُ أَكْبَرُ] ٣ خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ، فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ٤".

وفي مشهد الإغارة .. سن رسولنا العظيم ﷺ تلك السنة الكريمة التي حدث بها أنس بقوله: "كَانَ إِذَا أَتَى قَوْمًا بَلِيلٌ لَمْ يُغْرِ بِهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ" .. وذلك حتى لا يفزع الأطفال والنساء والشيخوخ، أو يهيج الدواب .. إن هذه السنة الكريمة لم تكن من قبل ولا من بعد إلا في حروب - محمد ﷺ - وأتباعه ..

وفي قوله ﷺ لما فرت يهود: " خَرِبَتْ خَيْبَرُ " .. درس يفيد أن الجبناء الفرار دائماً ما يجلبون العار والخراب على بلادهم وذويهم ..

١ صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٦)

٢ ابن القيم: زاد المعاد ٣ / ٢٨٣

٣ صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٧)

٤ صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٦)

المطلب الرابع : تحريم الحمر الأهلية :

قال سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

فَاتَيْنَا خَيْبَرَ فَحَاصَرْنَاهُمْ حَتَّى أَصَابَتْنا مَحْمَصَةٌ شَدِيدَةٌ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَتَحَهَا عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا أَمْسَى النَّاسُ مَسَاءَ الْيَوْمِ الَّذِي فَتَحَتْ عَلَيْهِمْ أَوْقَدُوا نِيرَانًا كَثِيرَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :
" مَا هَذِهِ النَّيْرَانُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تُوقِدُونَ ؟ "

قَالُوا : عَلَى لَحْمٍ .

قَالَ : " عَلَى أَيِّ لَحْمٍ ؟ "

قَالُوا : لَحْمُ حُمُرِ الْإِنْسِيَّةِ ١ .

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " أَهْرِيقُوهَا وَاكْسِرُوهَا " .

فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ مُهْرِيقُهَا وَنَعْسِلُهَا .

قَالَ : " أَوْ ذَاكَ " ٢ .

ونادى المنادي :

" إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ فَإِنَّهَا رِجْسٌ " .

إن نزول حكم تحريم الحمر الأهلية في ثنايا معارك خيبر؛ ليدلل على امتزاج الأحكام والنصوص الشرعية بالمعارك وجولات الصراع في التاريخ الإسلامي .. الأمر الذي يؤكد على تعهد الشرع الإسلامي السماح بمعالجة أية مخالفة يقع فيها الجيش الإسلامي، سواءً ببيان الحكم الشرعي أو باستخلاص الدروس والعبر كما حال سورة آل عمران في تعليقاته التربوية على غزوة أحد..

إن امتثال الجنود لأوامر ونواهي الشرع في فعل الحلال واجتناب الحرام أثناء المعارك هو من دلائل النصر ومن أمارات التمكين ومن صفات المصلحين ..

المطلب الخامس : الذب عن أعراض الشهداء :

قال سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

فَلَمَّا تَصَافَّ الْقَوْمُ كَانَ سَيْفُ عَامِرٍ قَصِيرًا فَتَنَاولَ بِهِ سَاقَ يَهُودِيٍّ لِيَضْرِبَهُ وَيَرْجِعُ

١ صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٧)

٢ صحيح البخاري ، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٥)

ذُبَابُ سَيْفِهِ فَأَصَابَ عَيْنَ رُكْبَةِ عَامِرٍ ، فَمَاتَ مِنْهُ .

قَالَ : فَلَمَّا قَفَلُوا . قَالَ : سَلَمَةُ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِي . قَالَ : " مَا لَكَ ؟ " .

قُلْتُ لَهُ : " فَذَاكَ أَبِي وَأُمِّي زَعَمُوا أَنَّ عَامِرًا حَبِطَ عَمَلُهُ " .

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " كَذَبَ مَنْ قَالَهُ ، إِنَّ لَهُ لَأَجْرَيْنِ " ، وَجَمَعَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ ، " إِنَّهُ لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ قَلَّ عَرَبِيٌّ مَشَى بِهَا مِثْلَهُ " ١ .

إن الدرس الأخلاقي البارز في هذا المشهد يكمن في مسئولية القيادة الإسلامية في الدفاع عن أعراض الشهداء ودحض الشبهات التي أثارها المتشككون حولهم .. ليبقى الشهيد هو الأنموذج الأعظم والمثال الأكبر في التضحية والبذل والفداء .

المطلب السادس : تحذير الجنود من الانتحار:

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اتَّقَى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ وَمَالَ الْآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ لَا يَدْعُ هُمْ شَاذَةً وَلَا فَاذَةً ، إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ ..

فَقِيلَ : مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

"أَمَّا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ !

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : أَنَا صَاحِبُهُ .

قَالَ : فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ .

قَالَ : فَجَرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتُ فَوَضَعَ سَيْفَهُ بِالْأَرْضِ وَذُبَابُهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : " أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ " . قَالَ : " وَمَا ذَاكَ ؟ " .

قَالَ : الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ أَنِفَا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ فَقُلْتُ أَنَا لَكُمْ بِهِ فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ ثُمَّ جَرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتُ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الْأَرْضِ

١ صحيح البخاري - كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر (٣٨٧٥)

وَذُبَابُهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ - :

"إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلًا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلًا أَهْلُ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ" ١ .

وقال : "فَمِنْ يَأْتِي فُلَانٌ فَأَذِّنْ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ" ٢ .

إن إقدام بعض الجنود على الانتحار في ساح القتال بسبب الجراحات أو نحو ذلك يسبب انتكاسة نفسية وانهازم وجداني للجيش ، ولما في ذلك من تعدي على بنيان الله الذي أودعه أمانة في عنق الإنسان المكلف .. لذا حرمة الشارع الحكيم الانتحار عامة وشدد على تحريمه في مواطن القتال لما في ذلك من اثر سلبي على النفوس .. اللهم إلا العمليات الاستشهادية التي تحدث نكاية في العدو وقد أجازها جمهور العلماء في القديم والحديث .

المطلب السابع : التحفيز على الأعمال البطولية :

عَنْ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- تَخَلَّفَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي خَيْبَرَ وَكَانَ رَمِدًا ، فَقَالَ : أَنَا أَتَخَلَّفُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ !!

فَلَحَقَ بِهِ ، فَلَمَّا بَتْنَا اللَّيْلَةَ الَّتِي فُتِحَتْ ..

قَالَ : " لَا أُعْطِينَ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ٣ يُفْتَحُ عَلَيْهِ " ٤ .

فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيْهُمْ يُعْطَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا .

فَقَالَ : " أَأَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ " .

فَقِيلَ : هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ !

١ صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨١)، (٣٨٨٥)

٢ صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨٢)

٣ صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨٨)، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

٤ صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨٧)

قَالَ: "فَارْسُلُوا إِلَيْهِ"

فَأْتِي بِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَن لَّمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ..

فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا.

فَقَالَ: "انْفُذْ عَلَى رَسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ" ١.

فَخَرَجَ مَرْحَبٌ - قَاتِلَ عَامِرِ بْنِ الْأَكُوْع - وَهُوَ يَقُولُ:

أَنَا الَّذِي سَمَّيْتَنِي أُمِّي مَرْحَبٌ

شَاكِي السَّلَاحِ بَطْلٌ مُجْرَبٌ

إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَبُ

فَبَرَزَ إِلَيْهِ عَلِيٌّ وَهُوَ يَقُولُ أَنَا الَّذِي سَمَّيْتَنِي أُمِّي حَيْدَرُهُ كَلَيْثُ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمُنْظَرَةَ

أَوْ فِيهِمْ بِالصَّاعِ كَيْلَ السِّنْدَرَةِ

فَضْرَبَ مَرْحَبًا فَفَلَقَ هَامَتَهُ وَكَانَ الْفَتْحُ. وَلَمَّا دَنَا عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ حُصُونِهِمْ

اطَّلَعَ يَهُودِيٌّ مِنْ رَأْسِ الْحِصْنِ، فَقَالَ مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: عَلَوْتُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى.

الْيَهُودِيُّ مِنْ حِصْنٍ خَيْبَرَ قَدْ جَمَعَ سِلَاحَهُ وَهُوَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ مَنْ يُبَارِزُ؟ فَقَالَ رَسُولُ

اللَّهِ ﷺ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: أَنَا لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا وَاللَّهُ الْمُوتُورُ الشَّائِرُ قَتَلُوا

أَخِي بِالْأَمْسِ يَعْني مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَكَانَ قُتِلَ بِخَيْبَرَ فَقَالَ قُمْ إِلَيْهِ اللَّهُمَّ أَعْنِهِ عَلَيْهِ فَلَمَّا دَنَا

أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ دَخَلَتْ بَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ فَجَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَلُودُ بِهَا مِنْ صَاحِبِهِ كُلَّمَا

لَاذَ بِهَا مِنْهُ اقْتَطَعَ صَاحِبُهُ بِسَيْفِهِ مَا دُونَهُ مِنْهَا حَتَّى بَرَزَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ وَصَارَتْ

بَيْنَهُمَا كَالرَّجُلِ الْقَائِمِ مَا فِيهَا فَنَزَّ ثُمَّ حَمَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ فَضْرَبَهُ فَاتَّقَاهُ بِالْذَّرْفَةِ فَوَقَعَ سَيْفُهُ فِيهَا

فَعَصَبَتْ بِهِ فَأَمْسَكَتَهُ وَضْرَبَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَتَلَهُ وَكَذَلِكَ قَالَ سَلَمَةُ بْنُ سَلَامَةَ وَمَجْمَعُ

بُنْ حَارِثَةَ: إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ قَتَلَ مَرْحَبًا. قَالَ الْوَاقِدِيُّ: وَقِيلَ إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ

١ صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨٨)

صَرَبَ سَاقِي مَرْحَبٍ فَقَطَعَهَا فَقَالَ مَرْحَبٌ : أَجْهَزْ عَلَيَّ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ مُحَمَّدٌ : ذُقِ الْمَوْتَ كَمَا ذَاقَهُ أَخِي مُحَمَّدٌ وَجَاوَزَهُ وَمَرَّ بِهِ عَلَيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ وَأَخَذَ سَلْبَهُ فَاخْتَصَمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَلْبِهِ فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا قَطَعْتَ رِجْلِي ثُمَّ تَرَكْتَهُ إِلَّا لِيَذُوقَ الْمَوْتَ وَكُنْتُ قَادِرًا أَنْ أَجْهَزَ عَلَيْهِ فَقَالَ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- : صَدَقَ صَرَبْتُ عُنُقَهُ بَعْدَ أَنْ قَطَعَ رِجْلِي فَأَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ سَيْفَهُ وَرُحْمَهُ وَمَغْفِرَهُ وَيَبِضَّتَهُ وَكَانَ عِنْدَ آلِ مُحَمَّدٍ بْنُ مَسْلَمَةَ سَيْفُهُ فِيهِ كِتَابٌ لَا يُدْرَى مَا فِيهِ حَتَّى قَرَأَهُ يَهُودِي فَأِذَا فِيهِ هَذَا سَيْفُ مَرْحَبٍ

مَنْ يَذُوقُهُ يَعْطَبُ ١ !

المطلب الثامن : تعفف الجنود :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَلٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :
كُنَّا مُحَاصِرِي خَيْبَرَ فَرَمَى إِنْسَانٌ بِجِرَابٍ فِيهِ شَحْمٌ، فَنَزَوْتُ لِأُخْذَهُ فَالْتَفَتُ، فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ فَاسْتَحْيَيْتُ ٢ .

فإذا كانت من سمات جند الله الصبر على المخصصة حال الحروب، حيث قلة الزاد، فإن عليهم أيضًا أن يتخلقوا بأخلاق العفة والقناعة، والتعفف عما سقط من غنيمة حتى تضع الحرب أوزارها .. إنه خطر محقق ومصيبة محققة أن ينشغل الجند بسفاسف الأمور وسقط الغنائم أثناء طاحونة الحرب ..

المطلب التاسع : الصلح مع خيبر :

لما استسلم اليهود، صالحهم النبي ، وأعطاهم الأرض ، يَعْمَلُوا فِيهَا وَيَزْرَعُوهَا، وَهُمْ شَطْرُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا ٣ .

وفي هذه المصالحة - بهذا الشكل - رحمة وعفو كبيرين بأهل خيبر ..

فهم في الحقيقة يستحقون الإعدام ! فهم قد خانوا النبي ﷺ وغدروا وتحالفوا مع مشركي قريش سرًا، وأصبحت قيادات خيبر والفصائل اليهودية الأخرى عملاء وجواسيس لمشركي مكة وغطفان .. كل هذا إلى جانب أنهم السبب الرئيسي في تحزيب

١ ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٨٣

٢ صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٩٢)

٣ صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٩١٧)

جيوش الأحزاب، من كل حذب وصوب..

ولما أقدمت امرأة منهم على محاولة اغتيال النبي - ﷺ - حيث أهدت لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شاةً فيها سُمٌّ ١.. وتوفي اثر هذه المحاولة الفاشلة أحد الصحابة .. لم يتقلب رسول الله ﷺ على أهل خيبر ولم يعمل فيهم القتل - كما يفعل بعض الزعماء في مثل هذه المواقف - إنما أثبت الصلح وأقر العهد .

المطلب العاشر : توقيف مقدسات العدو :

لما دخل المسلمون أرض خيبر، بعد النصر واستسلام اليهود، وجد الصحابة صحائف متعددة من التوراة، كانت قد وقعت فيها وقع من غنائم للمسلمين فجاء اليهود بعد ذلك يطلبونها، فأمر النبي ﷺ في سماحة - بردها إليهم، وعاملهم معاملة حسنة، ولم يقابل إساءاتهم بإساءة، ولم يصنع النبي ﷺ مثلما صنع الرومان حين فتحوا أورشليم؛ حيث أحرقوا الكتب المقدسة.

المطلب الحادي عشر : العدل مع المغلوبين :

لقد حدث أن عبدالله بن رواحة - رضي الله عنه - لما بعثه رسول الله ﷺ يقدر على أهل خيبر محصلهم من الثمار والزروع لمقاسمتهم إياها مناصفة حسب عهد رسول الله ﷺ بعد فتح خيبر أن حاول اليهود رشوته ليرفق بهم، فقال لهم : والله لقد جئكم من عند أحب الخلق إليّ، ولأنتم والله أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم !!

فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض ٢..!

لقد كان - رضي الله عنه - قد تخرج في مدرسة الرسول ﷺ على المنهج الرباني المتفرد القائم على العدل والمساواة .

* * *

١ صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٩١٨)

٢ ابن القيم : زاد المعاد ٢ / ١١ .